نجيب فاضل أمير الشعراء الأتراك

ولد نجيب فاضل قيصاكورك في إستانبول بتاريخ ١٩٠٥/٥/٢٦. وتوفي فيها بتاريخ ١٩٨٣/٥/٢٥م. وهو مفكر وأديب بارز. ولا يختلف اثنان في تركيا -مهما كانت مواقفهم - على أنه من أعظم الشعراء الأتراك في القرن العشرين. حياته الأولى تعكس اضطراب المثقفين من أبناء جيله وتقلبهم وقلقهم. ولعل تنقله في المدارس والتخصصات المختلفة علامة على أحوال العصر وقلقه.

فقد درس الابتدائية في المدرسة الفرنسية ثم الأمريكية ثم الرسمية التركية. وانتسب إلى المدرسة البحرية. ثم إلى قسم الفلسفة في جامعة إستانبول. ثم ترك الدراسة فيها. وحصل على بعثة رسمية إلى جامعة السوربون الفرنسية. ثم تركها بعد سنة واحدة. ورجع إلى بلده ليعمل مفتشاً في البنوك. فأستاذاً في المعاهد والجامعات التركية.

تفتحت مواهبه الشعرية مبكراً، فنشرت له أشعار في سن الثالثة عشرة. واقتحم عالم الشعر بقصيدة له سنة ١٩٢٢ من خلال (المجلة الجديدة)، فأثبت قدرته وقوته. وصدر ديوانه الأول "نسج العنكبوت" سنة ١٩٢٥. ولما نشر قصيدة "الأرصفة"، بلغ بها ذروة الشهرة، وتحدثت عنه مجالس الأدب والشعر (١٩٢٨) حتى نسب إليها فيقال له "شاعر الأرصفة" كما قيل لاحقاً "شاعر السجن" نسبة إلى قصيدة "رسالة من السجن إلى ولدي محمد"، وشاعر صقاريا نسبة إلى "ملحمة نهر صقاريا".

عوني لطفي أوغلو- تركيا

في المرحلة الأولى التي امتدت إلى ١٩٣٤، انقلب عالمه الداخلي إلى أتون ملتهب، وحياته إلى تأمل يغور في عذاب تستلذه ذاته القلقة، بذكائه اللامع وروحه التواقة إلى معرفة حقيقة الوجود. عبر عن هذا العذاب بقصيدة رائعة سماها "العذاب"، وسمى ديوانا له بها. وهيأ الله - سبحانه - له عالماً في الشريعة وداعية ومربيا هو الشيخ عبدالحكيم الأرواسي، انتشله من جحيم العذاب، وأطفأ نار ذاته بمجالس العلم، ودروس تلقاها منه استمرت إلى وفاة الشيخ سنة ١٩٤٣، وانصهر أثناءها عقله وروحه وعالمه وفكره، وولد ولادة جديدة.

عرفه عالم الأدب شاعرا مرموقاً، له ثلاثة دواوين شعرية حتى عام التقائه بالشيخ الأرواسي (١٩٣٤). وبعد تحوله الجديد، سلخ عن نفسه جلد اللاغائية والبوهيمية والقلق وعذاب المجهول، وترك ما سماه "البرج العاجي"، وتشكلت هويته الإسلامية - الثقافية - الفنية، وتبلور حس المسؤولية فيه إزاء الناس، فدافع بقلمه وقوله وفعله عما يؤمن به من الحق والخير ودعوة الإسلام. وتفتحت أزاهير الفكر عنده فخاض في فروع الأدب كلها، ودخل عالم الصحافة والفكر، حتى ظنوا أنه

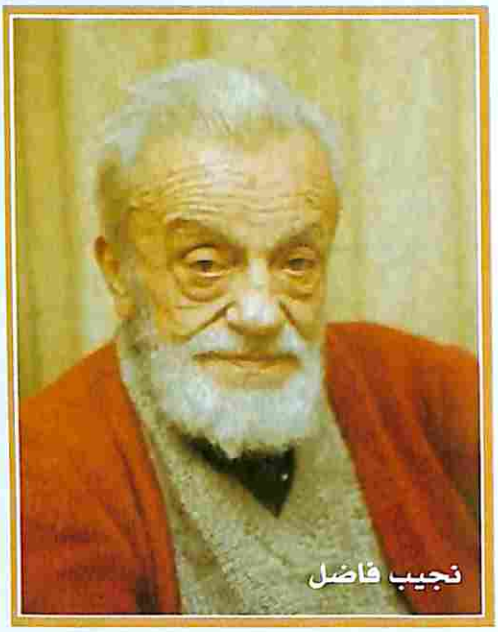
نجيب فاضل

قد ترك الشعر، ولمزه الذين وضعوه في ذروة الشعر "بالشاعر السابق"، نكاية به لسلوكه سبيل الإسلام وهم له كارهون!

وهكذا أنبتت حديقته مئة كتاب ونيفاً، فيها ٨ دواوين شعرية، و١٤ مسرحية، و٣ مجموعات قصص قصيرة، وروايتان، و١٧ كتابا في الإسلاميات، و٤٧كتابا في الفكر والسياسة والأدب والاجتماع والتاريخ. وجمع قصائده التي ارتضاها في ديوان سماه أخيراً باسم "أشعاري" في طبعة جديدة رافضا سوى ما ورد فيه من أشعاره، إما بسبب عدم اطمئنانه إلى الذوق الفني في غيرها (قرأت بعضها وإنها لتفوق كثيرا الشعر الذي يفخر به غيره)، أو أنه يعدها غير مستمدة من الإسلام، وغير مشدودة إليه شدا وثيقاً. وله ديوان آخر باسم "السلام".. عن سيرة النبي في ثلاث وستين لوحة، هي بعدد سنوات عمره صلى الله عليه وسلم.

ومن الآثار التي شكلت منعطفات في حاضر الثقافة التركية كتابه في الدفاع عن السلطان عبدالحميد الثاني المنشور سنة ١٩٦٥، وأيضا عن السلطان وحيد الدين آخر السلاطين العثمانيين المنشور سنة ١٩٦٨ م،وغيرهما من الكتب مثل "أبطال مزيفون"، و"كبار مظلومي التاريخ".

وما سلك نجيب فاضل درباً من دروب الفكر أو الأدب إلا بز فيه أصحابه وأهله، كارهين أو محبين. فنالت كتبه الجوائز، ومثلت مسرحياته، وصارت رواياته مواضيع لأفلام سينمائية. وكرمه وقف الأدب التركي بلقب سلطان الشعراء، فحاز على القبول العام واشتهر بهذا اللقب. ولقد ترك مدرسة ثقافية لا زالت تخرج أتباعاً ومحبين.

كان حركة إسلامية في رجل واحد، هي حركة الشرق الكبير، لها صحيفة ومرجعية بهذا الاسم. رجل رسم معالمها في كتبه الفكرية والعقدية، وجاب أنحاء الأناضول لنشرها وإذكائها بالمحاضرات

والخطب التي يتجمع للاستماع إليها الألوف بغير مبالغة في القول. ولم يرده عن الدعوة إلى الحق الذي يؤمن به سجن أو تهديد.

رأيه في الشعر والفن:

الإبداع متأصل في ذات نجيب فاضل، والشاعر، بل الفنان عموما لا يعتد به بغير أصالة الإبداع في فطرته روحا وعقلاً. فلا غرو إذن أن يعشق حريته، وأن يؤمن أن الفن للفن، في مرحلته الأولى، لكنه ألزم الفن نفسه، فغير دفة الفن من اللاغائية والسير إلى المجهول، ووجهها إلى "الحق المطلق".

الشاعر عنده و(الفنانُ) لا يكون شاعراً بغير حس وقاد يستشف ما وراء المادة، ويستكشف ما وراء الحجب، والشاعر هائم باحث عن ضالته. فهو بذلك ملتزم ذاتياً بالبحث عن الحقيقة المطلقة. والتزام الشاعر، التزام تبعي لالتزام الصنعة والفن بسلوك طريق البحث عن الحق المطلق، وإن كبا كبوة، أو تعثر عثرة في الطريق.

أما إن ضل السبيل، فهو كطنين الذباب المحبوس في ناقوس من زجاج، أو كصوت مبحوح خافت في فضاء السماوات، فلا يؤبه له.

الشاعر بهذا المعنى بطبعه المتوهج وحسه المرهف مجبول على سلوك طريق الحق المطلق. فهو سالك أو باحث، أو عارف. ولا

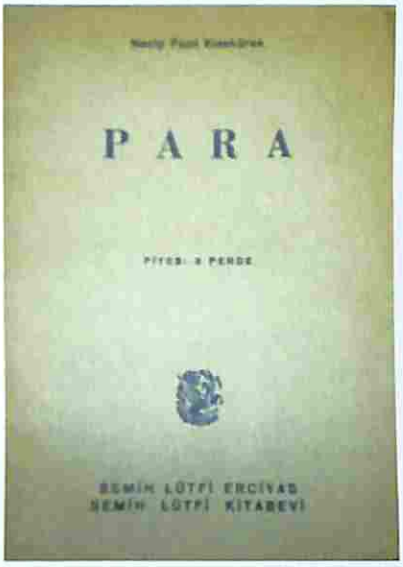

يسأل عن شعره، كما لا يُسأل النحل عن العسل، ما دام ملتزما بما هو مفطور عليه.

إن نجيب فاضل يرفض القيود الخارجية التي تكبل الإبداع الذي لا يكون الشاعر شاعراً إلا به، لكن يلزمه بانقياد الفن نفسه وتوقه إلى الجميل الصانع البديع. الفن نفسه ليس بفن إلا بالبحث عن الحق المطلق. ولا أظن أن شفافية الروحانية خافية في هذه الرؤية. فكأنه يصوغ غاية الأشياء في الكون في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، ويطلق حرية الموجودات بإعلان مطلق عبوديتها لله تعالى. بل نجد ظلال هذه الرؤية (أو أنوارها) في قوالب الشعر أيضا.

لقد التزم نجيب فاضل بأوزان القصائد التركية الموروثة في شعره كله. ولغته راسخة وسليمة وغنية وعذبة. والتزم القوافي مطلقا. ولا يفوتنا أن نقول: إنه عبقري في تسخير القوافي لمعان تتفتق إبداعا في صور وتداعيات مدهشة وذكية بلغة ثرة وطيعة. اللفظ والقوافي كالجن المسخر لمعانيه البديعة. لكنه يرفض أن توضع القوالب والأشكال عوائق أمام الإبداع الفني، أو سداً يقطع تدفق ماء السيل. ويرفض أيضا تحطيم القوالب بوصفها مقاييس للجمال. فكأنه يريد تسخير القالب والشكل لإظهار جمال الإبداع. لذلك يتهم من يظن أن هذه القوالب هي سجن للإبداع، أو أنها غاية يقصدها الإبداع، بأن كليهما من أعظم المخطئين.

ولقد وضع مقياساً للأدب والفن الإسلاميين بقوله: "لن يقوم فن إسلامي ما لم ينتقل من حال التبليغ

(بالخطاب المباشر)، إلى حال التلقين (بالإيحاء)".

تميز شعره قبل سنة ١٩٣٤ بالفردية والاستغراق في الذات، والقلق والأحاسيس النفسية. وبعد هذه المرحلة تركزت المعاني عنده، فكتب في العواطف الإنسانية السامية، والإنسان وسموه، ومعضلة الزمان والوجود، وما في النفس والأحاسيس الإنسانية من حب وخوف، والوشائج بين المادة والروح، وحب النبي صلى الله عليه وسلم والدعوة إلى الإيمان. ولم يلجأ في كل ذلك إلى الحماسة والخطابة والمباشرة. بل حرك كوامن الحس والتصور والعقل بأسلوب عاطفي وذكي ومثير للخيال.

نماذج من شعره:

ملحمة نهر صقاريا

(شهدت ضفاف نهر صقاريا معركة كبرى في حرب الاستقلال. وهو ينحدر من الجبال انحداراً سريعاً، فلونه لون الطين لسرعة تدفقه. تحيط به صخور الرخام. متموج وغضوب، تنتشر فوقه الفقاعات والزبد. ويبدو مع تضاريس المرتفعات والجبال حوله كأنه يسيل صاعداً إلى أعلى، لا منحدراً إلى أدنى. ويونس المشار إليه في القصيدة هو "يونس أمْـرَهْ" شاعر، صالح، زاهد، وقد ساح في تلك الأرجاء. وإلى هذه المعاني تشير أبيات من القصيدة):

«إنه الإنسان كالماء يسيل، ويمور موراً
وأنا ههنا، وههنا صقاريا، نمور إنسانا ونهرا
النهر يتدفق من الأعلى سفحا بعد سفح منحدرا
وأنا قدري أن أظمأ رهقاً في ارتقاء السفوح إلى الذرى!
كل شيء يسيل: الماء والتاريخ والنجوم والفكر والإنسان
الينابيع نور أو رجس.. الينابيع نوعان!
ويُشدُّ كل صغير وكبير، وتُوثَقُ الكائنات في حزمة السَيَلان!
تأمل في تصاعد السحاب.. لانحدار الماء معاندا!
لكن عجبا لصقاريا.. أتراه يتسلق الصخور مكابدا!
وقد احتمل الزبد حملا كالرصاص، على ظهره تَعَلّق
يتفطّر رهقاً ليرتقي المعالي، يتشقق
ويك صقاريا، من يدعي أن الماء لا يُرتّق؟
بل إن شاء ربي يتلوى الماء ويتحلق
ويُنْقَشُ بها على ظهر صقاريا تاريخاً للتُرك أثيلاً..
ويلك. ويلك صقاريا.. أأنت حُمّلت بهذا الحمل الثقيل؟
فإنها رسالةٌ مستخَفٌّ بها، رسالة يتيمة، وإنها لرسالة عظيمة!
يا صقاريا.. أي محنة هذا الامتحان الرهيب!
وكيف يَحمل نسراً ذا ألف رأس، جسمُ العندليب؟
كنت أظن الإنسان للأمانة المقدسة حمالا..

حمالةً لا ترتجي علوا ولا جاها ولا مالاً..
وما وراءها إلا لقمة مُرّة مزجت بالسم
وفراق عن الوطن والخلان والأم..
فشُقّ الجيب، والطم الخد، يا نهر صقاريا، إنه وقت اللطم!
وتَذَكّر الشمس القديمة الهاربة إلى درب التّبان
أين الذي كان يجوب ضفافك..؟
وأين الجيش الذي يُخلّف في كل موطئ ظلّ قبة ومنبر؟
وأين أخواك، النيل المعطاء والدانوب الأخضر؟
وأين المغوار الصائل المجيد؟ ومتى يعود إلى أهلك؟
أما زال التكبير ينبض في عروق الرخام من حولك؟
وهل يجد الريح العاصف المجنون ضالته: صدى التوحيد؟
ففيك انغلقت هذه الطلاسم واشتبكت الأحابيل..
والليالي يا صقاريا تصب قطرانا، لا زيتا، في القناديل.
فليفُرّ فائرك، يا نهر صقاريا، كغليان الضمير تعذيباً
قد صرت في وطنك منبوذاً، في أرضك غريبا
الإنسان قطرات دم، والنهر قطرات ماء
نتجرع العيش في حياة، تنصب فخاً للحياة
رحل عنا صدق الخلود، وحل فينا كذب الفناء
فمن يحييكم، أيتها الجثث، يا أموات الأحياء؟
ولو تعلق جبل "قاف" في العقل لما وزن شعرةً، مثقالاً
لكن شعرةً من عفريت هذا السؤال، لا يطيقه العقل سؤالا
يا صقاريا، يا ابن الأناضول، رمز البراء الفطري
لم يبق من (مجاذيب) درب الله، غيرك وغيري!
أنت وأنا، كلانا بالدمع قد عجنّا.
أما ترى بَشرتَيْنا، بلون الدم والطين.
إنا حين وقعنا في كماشة العقرب، عجنتْنا الأقدار بالأهوال
فلا تبال.. هكذا حال الدنيا وخُلُق الليالي
ولا تأسَ، فأنت، الحوض لك تابوت، وأنا، الفراش لي كفن
فانحدر أنت موّاراً، وأسير أنا، ومرشدنا الرسول المؤتمن
السبيل سبيل الله والكون ملكه، والعمل فيما عداه كدحٌ هباء
ولقد طال بك الزحف، فقم منتصبا يا صقاريا، وانهض إلى العلياء.

■ ■ ■

"رسالة من السجن إلى ولدي محمد"

عالم يحصر الأكوان في كُوّة حصرا
ويلقي العقل في ضغط المحال قهرا
وألف سؤال بعد ألف تترى
أنسيان أم تفكر؟ أكلام أم سكوت؟
هل الخارج من هنا إذ يخرج.. إنسان أم تابوت؟
هات الشاي الذي طعمه كالسم الزعاف
ولنشرب، ولتمض دقيقة من عمر الأعوام
إذ لا فرق في السجن بين الثواني والأيام
فحرك الشاي رويدا ليذوب الزمان!
أذبْه في فقاعة وبخار ودخان!
عليٌّ.. كان محكوماً بالإعدام. علق بالحبل
ختم ختمه، وأسقط اسمه من السجل
جاء وراح، أياماً في موسم وفصل
وخلف من بعده في الحديقة قرنفلات
زرعهن.. الآن رقابهن مائلات!
الصمت يمتد متدحرجاً مهما امتد البصر
ولا يستقر في نقطة من هذا العالم النظر
أما زال للميت والقبر في الأرض مقر
أم فرغت الأرض من أهلها جميعا في غفلة!
وبقينا هنا، والبشر نحو الشمس في هجرة ورحلة؟

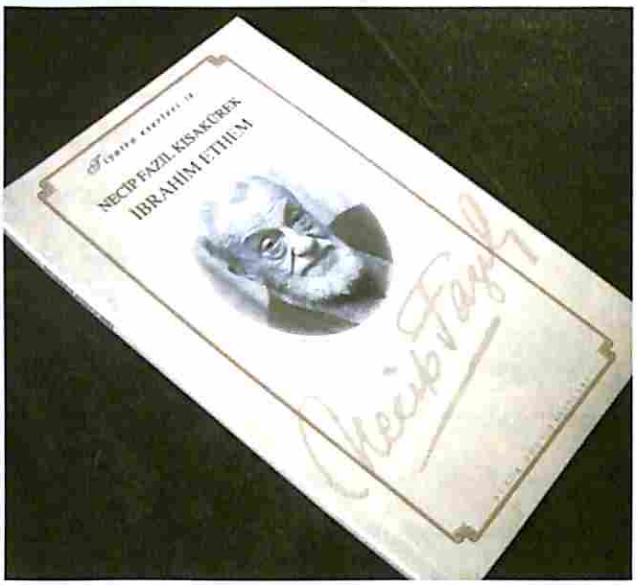

الماء حديد، والخبز حديد، والصوت حديد
فامضغ المحال إن شئت في الحديد
إنه القدر والأمر الذي ليس منه محيد
منفذ النور بائس وصغير وضيق، هنا
لكنه يُطلقُ النظر نحو السماوات، ويحجز عن الدنى
تخدرت الأذرع الممتدة بالدعاء
النجوم في الأكف، تشققت صفحة السماء
والدموع مزرعة تفتحت زهوراً ناضرة
وخَيْطُ نَفَسٍ، وخيط دخان، وخَيْطُ بخار شارد!
خيوط دقيقة، تحوك نسيجاً في الفراغ البارد!
هذه السجون كأرحام الأمهات
فيها يولد النور من الظلمات
"بادر وكافح"، في أذني نداء الأصوات
أنت عملاق، وحمل العملاق كالجبال وزنا
قف شامخا منتصبا، وافرح ولا تبتئس حزنا
افرح يا ولدي، جباهنا عالية، افرحوا كلكم أجمعون
افرحوا إن عدنا إلى بيوتنا، أو إن أخذتنا المنون
إن القافلة ستمضي، فلا تجزعوا بالظنون
الغد لنا، لابد.. ولا محالة، فالغد لنا.
ما أشرقت الشمس أو غربت، فالبقاء لنا

■ ■ ■

المُنْتَظَر

لا المريض ينتظر للشمس شروقاً
ولا يرى القبر المحفور مَيْتا
ولا الشيطان إثما أو فسوقاً
كانتظاري إياك أن تعود
بعدما وجدتك في غيابك..
غب، فما أفعل بإيابك؟
يكفيني أن تدع ظلك في خيالي
ولا تَعُد. فما أرجو ولا أبالي..

■ ■ ■

النفس

أموت.. أموت، وأحيا
فأجد النفس أمامي شركا منصوباً
ما أيسر أن أهرب من الناس
لكني لا أطيق من ذاتي هروبا

■ ■ ■

حلم

أماه مر بي طيفك حلما.
التحفي دعواتي في القبر،
ولا ترتعشي من البرد
أنا لا أفهم، فكيف أشرح؟
ثَمّ من يَتْبعُني حثيثاً، يطلبني..
فلقد جاء الوعد!

■ ■ ■

دعاء

إن غرزت في ظلي سكيناً
لتدفق الدم مني، حاراً نديا
فتعال وانظر إلى بلدي مليا
بلا رؤوس.. بلا رؤوس هؤلاء الرجال!
فاذرفوا الدموع في البحر، ليرتفع الماء
عسى أن تنجو السفينة الضاربة في شاطئ الرمال
وافرشي سجادتك، يا أماه.
وزيدي في الدعاء

■ ■ ■